القوة الناعمة؛ أو في التمظهرات الجديدة للتسلط

يحيى اليحياوي(*)

أستاذ التعليم العالي (زائر حالياً)،
كلية الحقوق، جامعة محمد الخامس، الرباط.

مقدمة

طيلة القرون الخمسة الماضية، تعاقبت في الهيمنة على العالم والسيطرة عليه، مجموعة دول وإمبراطوريات، منها من تراجع مده ونفوذه، إلى درجة التقوقع الجغرافي، كالإمبراطوريات الإسبانية والهولندية والفرنسية والعثمانية وغيرها؛ ومنها من كابر وتمنع، لكنه رضي في النهاية بوضع ثانوي أمام «القوى الجديدة»، كما حال بريطانيا العظمى؛ ومنها من هيمن وما يزال يهيمن منذ أربعة أو خمسة عقود، كما الحال مع الإمبراطورية الأمريكية حالياً؛ ومنها من يتطلع إلى الهيمنة، وإلى أن تكون له الكلمة/الفصل في القرن الحالي، كما هي حال الهند والصين وبعض دول جنوب شرق آسيا وأمريكا اللاتينية.

لقد سيطرت على العلاقات الدولية، مباشرة بعد الحرب العالمية الثانية، قوتان كبيرتان، اعتمدتا في تدبير صراعهما على منظومة في الردع النووي، كأداة من أدوات تنظيم العلاقة بين قطبي الشرق والغرب، فأخضعت جراء ذلك كل النزاعات في الأطراف والهوامش للثنائية ذاتها، وتغلّب المعطى السياسي والاستراتيجي كرافد من روافد الضغوط الاقتصادية.

وقد كان للولايات المتحدة، منذ بداية تسعينيات القرن الماضي، القول/الفصل في تحديد معالم العلاقات الدولية «الجديدة»، وبدا مع هذا المستجد، كما لو أن نظاماً عالمياً جديداً يتشكل تدريجياً، يكون للولايات المتحدة الأمريكية بموجبه مركز القيادة والهيمنة، حتى وإن بدا أن ثمة

(*) له عدة مؤلفات، منها: **العولمة الموعودة: قضايا إشكالية في العولمة والسوق والتكنولوجيا** (١٩٩٩)؛ **العولمة ومجتمع الإعلام** (٢٠٠٠)؛ **احتقار الديموقراطية: دراسات في آليات الاستبداد الجديد** (٢٠٠٥)؛ **حصار الإعلام: دراسات في المشهد الإعلامي العربي المعاصر** (٢٠٠٦)؛ **العرب وشبكات المعرفة: دراسة في الموقع والواقع** (٢٠٠٧)، و**العراق القائم والقادم: مقالات عن العراق المحتل** (٢٠٠٨).
البريد الإلكتروني: elyahyaoui@elyahyaoui.org.

من الدول والمجموعات من يتطلع إلى منافستها أو مزاحمتها، لا سيما من لدن اتحاد أوروبي ينشد الاستقلالية عن القرار الأمريكي، أو من لدن الصين، أو اليابان، أو وروسيا، أو غيرها.

إن هذا المشهد الفريد، الذي بدأ يتشكل منذ نهاية القرن الخامس عشر، وما يزال يتموج، إنما غدا يتفاعل ولكأنه يستعيد نفسه، في سياق صيرورة ما تحدث عنه توينبي عندما كتب عن صعود وسقوط الإمبراطوريات، وظهور إمبراطوريات أخرى على غرارها أو على أنقاضها[١].

إن الميزات الأساس التي جعلت الولايات المتحدة الأمريكية، تتبوأ المرتبة الأولى في العلاقات الدولية، منذ نهاية الحرب العالمية الثانية على الأقل، لا تكمن فقط في شساعة أراضيها وضخامة ثرواتها، وتنوع أعراقها، وقابلية كل هذه العناصر للاندماج والتعايش والعمل المشترك، ولا تكمن أيضاً فقط في طبيعة النظام الاقتصادي الذي اعتمدته، أو المرجعية الليبرالية في التنظيم والتدبير؛ ولكن تكمن أيضاً وبالتحديد في التحالف القوي بين السياسيين ورجال الأعمال من ناحية، ورجال الفكر ورجال الدين من ناحية ثانية، لرسم خلفية فكرية حاسمة للمصلحة القومية العليا للولايات المتحدة، التي ألقت بظلالها، في الشكل كما في المضمون، وكذلك في الآليات، على سياستها الخارجية ودورها في العلاقات الدولية.

ظهر مفهوم القوة الناعمة في سياق القوة التي تعتمدها الولايات المتحدة للهيمنة على العالم في إطار نظرتها المركزية "الرسالية" ومن ثمة "الاستعلائية" إلى الذات.

يقول أحد قادة البحرية الأمريكية في بداية هذا القرن، وكان ذاك التحالف في مراحله الأولى: «على الولايات المتحدة أن تنشر نفوذها التجاري في أنحاء الأرض كلها، والتصدي للأهداف الإمبريالية الأوروبية. إن مبدأ مونرو يوجب على الولايات المتحدة رفض أي نفوذ آخر. الأمر محكوم بالمصلحة القومية وحدها، ولا يبدو أن له حدوداً. فعلى الولايات المتحدة الارتقاء إلى مصاف القوى العظمى. وتكمن المصلحة القومية، من حيث جوهرها المعلن، في مطالبتها بهيمنة أمريكية ممتدة إلى ما بعد البحار»[٢].

إن العديد من النصوص الواردة سواء على لسان رجال الدين، أو في خطب رجال السياسة والمال، إنما تعكس بقوة هذه الرغبة الجامحة في الهيمنة الاقتصادية والعسكرية والدينية على العالم، من لدن الولايات المتحدة. أي أن المشروع الأمريكي كان يتغيا منذ البدء، أي منذ بسط الدولة الأمريكية على كل تراب «الهنود الحمر»، كان يتغيا «جذب كل أنام الكوكب إلى مجتمع مثالي، كما تشكل على الأرض الأمريكية، وتحقيقه أولاً بالتسامح، ثم بالقوة عند الاقتضاء، وأخيراً، وهو الأفضل، بالتجارة. إن مهمة أمريكا هي أن تدل بقية العالم إلى طريق

---

(١) منح خوري، **التاريخ الحضاري عند توينبي** (بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٦٠).

(٢) يرتكز مبدأ مونرو الذي أطلقه في العام ١٨٢٣، على ضرورة عدم مد الدول الأوروبية لنفوذها الاستعماري نحو أمريكا.

التوبة، والتطهير الكبير والإصلاح الاجتماعي، وتراكم الثروة بشتى الطرق»[٣].

النظرة كانت إذن، ومنذ البدايات الأولى، نظرة إلى الذات، مركزية، «رسالية»، ومن ثمة «استعلائية» تجاه العالم، الذي ما يزال وفق هذا التصور، يعيش في الظلمة، بتبني قيمها وبالتجارة طواعية، أو بالقوة إذا لزم الأمر. بالتالي، فإن الرسالة الأمريكية إنما هي في المحصلة رسالة مصلحتها القومية، وبتحقيق هذه المصلحة، تتحقق الرسالة الأمريكية، بالقيم، بالدين، بالقوة، بالتجارة، كما لو أننا إزاء استعادة طبق الأصل للثلاثية الأوروبية، التي استندت في حقب هيمنتها وسيطرتها على العالم إلى ثلاثية العسكري والتاجر والمبشر.

إن الإمبراطوريات، يقول هنري كسينجر، لا تهتم بأن تدير شؤونها في إطار نظام دولي، إنها تطمح إلى أن تكون هي ذاتها النظام الدولي، بالجملة والتفاصيل.

وعليه، فإن سياسة الرئيس روزفلت مثلاً، في أواسط أربعينيات القرن الماضي، كانت تعكس تماماً مقدار القوة التي بلغتها أمريكا، هو الذي كان يعتبر أمريكا، ليس فقط، صاحبة رسالة كونية شاملة، بل وأيضاً قوة عظمى، وربما أعظم قوة. هذه الرسالة في نظره، هي القادرة على حراسة وضبط العلاقات الدولية، بحكم القوة التي بلغتها، إلى درجة جعلت كيسنجر يقول عن روزفلت إنه «رفض التأثير المفترض للقانون الدولي. فالذي لا تستطيع الدول حمايته بقواها الذاتية، لن يحميه الآخرون. والحق الذي لا تدعمه قوة شر، هو أكثر إيذاء من القوة المنفصلة عن الحق»[٤].

هو تصور محدد وواضح، ليس فقط على اعتبار كونه ينهل من حقيقة تكون المجتمع والدين من بين ظهرانيها في آن واحد، ولكن أيضاً كونه المرجعية الفكرية والأيديولوجية التي جعلت مجموعات بشرية تتحرك لتنظيم نفسها، كحركة سياسية اجتماعية ذات مرجعية دينية، وتؤسس كيانات وتحالفات عدة، في إطار مجتمع مدني لديه رؤية سياسية، وقوة ضغط تم التعبير عنها في ما بعد باليمين الديني، الذي سيفعل بقوة، بالاقتصاد كما بالمال، بالسياسة كما بالفكر، لينجح في المحصلة في إيصال الرئيس بوش الابن إلى الحكم، باعتباره الممثل والدافع بذات الكيانات والتحالفات.

في صلب كل ذلك، أي في صلب سياق القوة الذي اعتُمد في الفكر والممارسة الأمريكيَين، منذ أواسط القرن الماضي، خرجت مقولة جديدة، مكملة للسياق ذاته، بانية له ومؤطرة، مفادها أن القوة الخالصة وحدها غير كافية لبناء الإمبراطورية، أو ضمان هيمنتها وسيطرتها على العالم؛ إنها بحاجة إلى «قوة ناعمة» تبررها، تمهد لها، وتفسح لها في المجال، إذا لم يكن لتطويع العالم ودفعه إلى القبول بـ «القيم الأمريكية»، فعلى الأقل لضمان عدم مناهضته لهذه القيم، أو السير على النقيض من الدافعين بها.

---

(٣) حتى مشروع مارشال ذاته، لم يكن يتغيا إعادة بناء أوروبا فحسب، بل وإسهام الولايات المتحدة الأمريكية في صياغة نظم سياسية «على مقاسها».

(٤) الدبلوماسية، بنظر كيسنجر، هي فن تقييد القوة.

أولاً: في أطروحة القوة الناعمة

في كتاب له مرجعي صادر أواخر ثمانينيات القرن الماضي، عن **القوة الناعمة: معاني النجاح في السياسات الدولية**(٥)، حدد الأدميرال جوزيف ناي، وهو عميد في جامعة هارفارد، ورئيس مجلس الاستخبارات الوطني الأمريكي، وكان مساعد وزير الدفاع في عهد إدارة كلينتون، حدد مفهوم هذه القوة في كونها: «القدرة على الاستقطاب والإقناع... إذ بما أن القوة الخشنة تكمن في القدرة على الإجبار والإكراه، المتأتية من القوة العسكرية للدولة، أو من تفوق قدراتها الاقتصادية؛ فإن القوة الناعمة تتأتى من جاذبيتها الثقافية أو السياسية»، أو ما سواها.

يتحدد مفهوم القوة الناعمة عند ناي إذن، قياساً إلى مفهوم القوة الخشنة، التي غالباً ما تجد ترجمتها العسكرية في الحرب المباشرة، وترجمتها السياسية في المضايقة عبر الهيئات الدولية والإقليمية، وترجمتها الاقتصادية في سبل الضغط والمقاطعة والحصار، وهكذا.

إن القوى الموجودة لدى الدول والشعوب، وهي قوى اقتصادية وعسكرية في الأساس، إنما هي قوى «خشنة وقاسية»، يقول ناي، قد يكون بالإمكان من خلالها، الوصول إلى الأهداف المبتغاة، من هيمنة وسيطرة وتسلط؛ لكن ثمة قوى أخرى أقوى وأشد من القوى القاسية، وهي القوى الناعمة، التي لا تلجأ إلى القوة الأولى في إدراك الأهداف نفسها. يقول ناي: «إنه، وإن أمكن الوصول إلى الأهداف من خلال القوى الخشنة، ومن خلال استعمال القوة من قبل القوى الكبرى، إلا أنه قد يشكل خطراً على أهدافها وتطلعاتها الاقتصادية والسياسية، وحتى الثقافية». لذا، فإن الولايات المتحدة «إن أرادت أن تبقى قوية، فعلى الأمريكيين أن ينتبهوا إلى قوتهم الناعمة».

معنى هذا، يتابع ناي، أنه بمقدور دولة كالولايات المتحدة الأمريكية، أن تحصل بالقوة الناعمة أو الرخوة، على النتائج ذاتها التي تريدها في السياسة الدولية؛ لأن الدول الأخرى غالباً ما تريد اللحاق بها، أو اتباع نموذجها أو تقليده، إعجاباً بقيمها، أو تقليداً صرفاً للنموذج ذاته والقيم ذاتها، أو تطلعاً من لدنها إلى إدراك مستوى ازدهارها ورفاهيتها وانفتاحها. بالتالي، فليس من الضرورة في شيء، إجبار الآخرين على التغير، من خلال سبل التهديد والوعيد، أو اللجوء إلى القوة العسكرية أو الاقتصادية لتركيعهم، ولكن بالإمكان إجبارهم بطرق أخرى، تجعلهم «يريدون ما تريده أنت» بطريقة أخرى، ودونما استفزازهم، أو استعمال الأساليب الخشنة ضدهم.

ولما كانت القوة الخشنة هكذا وأكثر، فإن غريمتها (الناعمة أعني) تتغيا، وللأهداف ذاتها ربما، أساليب رخوة قوامها نشر الأفكار والمعلومات، ودعم قنوات البث الإذاعي والإرسال التلفزي، وترويج سلع وخدمات وبرامج معلوماتية، يكون المبتغى منها زعزعة ثقة الناس في

---

(٥) Joseph S. Nye, Jr., *Bound to Lead: The Changing Nature of American Power* (New York: Basic Books, 1990).

طبيعة النظام القائم، أو تشويه صورة القائمين عليه، أو إغراءهم جميعاً بـ «مزايا»، تبدو لمالك القوة الناعمة (والخشنة)، أنها الأمثل والأصلح والأنجع وسبيل «الخلاص الأوحد».

ولما لم يعد ممكناً اليوم، التوسل بأساليب الاستعمار المباشرة، أو استعمال القوة الصلبة؛ فقد جاء الإعلام والسلط الرمزية الأخرى لتأدية الدور نفسه، أي «القدرة على تحقيق مردود في الشؤون الدولية من خلال الاستقطاب، أكثر مما يمكن تحقيقه عبر الإكراه البدني».

أمام صعوبة خيار استخدام القوة الخشنة، ازدادت الحاجة إلى القوة الناعمة، التي تتأتى من جاذبيتها الثقافية أو السياسية والتي ليست سوى الوجه الآخر للقوة الخشنة.

لقد شكلت إرهاصات العولمة بداية حرب جديدة بأدوات جديدة، يقول البعض، «والمؤكد أننا في القرن الحادي والعشرين على موعد مع حرب القيم والأنماط الحضارية، وستكون أعنف من جميع الحروب، لأنها ذات أساليب خفية. وربما كانت العولمة نفسها هي أكثر هذه الأساليب خفاء. فالعولمة في ظل الاختلال الكبير بين الشمال والجنوب، لا يمكنها إلا أن تكون احتلالاً بغيضاً، لأنها في ظل هذا الاختلال بمثابة ضخ المزيد من القوة والحيوية في ثقافة معولمة أصلاً بالنسبة إلى الجنوب، وهي الثقافة الغربية»(٦).

العولمة هنا، وما حملته معها من تطورات تكنولوجية، وقطائع مؤسساتية، وتحولات في العلاقات الدولية، إنما غدت في رأي الكثيرين، أداة من أدوات الحرب النفسية التقليدية (وإن تطورت أدواتها كثيراً منذ مدة)، القصد منها تجنب اللجوء إلى القوة العسكرية المكلفة، والمراهنة على درء خطر أو تحصيل غنيمة، دونما كلفة حرب، قد يذهب في خضمها الأخضر واليابس من كلا الطرفين.

يقول جوزيف ناي: «لقد أضحى من الصعب، في العالم المعاصر، استخدام العصا... إذ القوة العسكرية، على الرغم من ضرورتها كسياسة ردع وإكراه، فهي أصبحت صعبة جداً... وأصبحت الحرب أمراً جد مكلف من الناحية المادية...»، ناهيك عن المناهضة المتزايدة للحروب، واستخدام القوة من لدن الرأي العام(٧).

إن القوة ترتبط بالموارد في بنيتها وتطلعاتها، وفهم القوة يقتضي حتماً فهم الموارد، «فتكون المحصلة التطبيقية لفهم القوة ومصادرها، بالنسبة إلى الدولة هي: امتلاك عناصر معينة امتلاكاً متفوقاً أو مؤثراً، مثل السكان، والإقليم الجغرافي، والموارد الاقتصادية الطبيعية والتجارية، والقوة العسكرية، والاستقرار السياسي»، وما سواها.

وتكون في أحيان كثيرة موارد أو مصادر قوة معينة، هي سر القوة والتأثير، «مثل

---

(٦) يحيى اليحياوي، **العولمة الموعودة: قضايا إشكالية في العولمة والسوق والتكنولوجيا** (الرباط: منشورات عكاظ، ١٩٩٩).

(٧) Nye, Jr., Ibid.

الصناعة القائمة على الطاقة البخارية والسيطرة البحرية البريطانية في القرن التاسع عشر، وسكة الحديد الألمانية في النصف الأول من القرن العشرين، والقوة النووية للولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي، في النصف الثاني من القرن العشرين».

إن معظم مفاصل التاريخ مصوغة على هذا الأساس: «ففي القرن السادس عشر، كانت السيطرة والتأثير لإسبانيا، بواسطة السيطرة على الذهب والتجارة الاستعمارية، وعلاقات الأسر الحاكمة؛ وفي القرن السابع عشر، كانت السيطرة لهولندا بواسطة التجارة ورأس المال؛ وفي القرن الثامن عشر، كانت السيطرة لفرنسا، بالثقافة والصناعات الريفية والسكان والإدارة العامة»[٨]، وهكذا.

إن القوة في العلاقات الدولية التقليدية، كانت تتحقق أساساً بالقوة العسكرية، أي بالجيوش المدربة والمنظمة، والأسلحة المتفوقة، وجَلَد الجنود والمقاتلين ومهارتهم. لكن المعيار العسكري ذاته لم يعد حاسماً أو فريداً في مرحلة مابعد الحرب الباردة، بل لربما قد يصبح عبئاً اقتصادياً، وسبباً لنزيف بشري ومادي قد يؤدي إلى الضعف والتراجع، وربما الانهيار.

لقد ظهرت، في ظل العولمة والثورة التكنولوجية، تهديدات وتحديات جديدة كبرى (من قبيل التلوث، والمافيات، والمخدرات والإرهاب، والقرصنة، والصراعات العرقية والإثنية وغيرها)، لم تعد حلولها تتساوق مع سياسات إعمال الحلول العسكرية. وبات من المؤكد أن العدد الكبير للسكان، قد يكون مورداً كبيراً للدولة، يعطيها زخماً سياسياً واقتصادياً وعسكرياً، لكنه لم يعد كافياً، إذا لم يكن متضمناً مصادر الكفاءات والمهارات والكوادر العلمية والإدارية. وإذا لم يكن كذلك، فإنه لا يغدو مصدر قوة، بل مصدر تراجع وتقهقر.

إن المعرفة اليوم أصبحت معياراً مهماً، لا بل وأكبر معيار في القوة والتأثير في العلاقات بين الدول والشعوب. والقوة العسكرية والاقتصادية ذاتها، بدأت ترتبط تدريجياً بالتكنولوجيا في مختلف أشكالها وأنواعها وتلاوينها، وأصبحت الصناعات المعرفية، مثل الحواسيب والشبكات والبرامج والتصاميم المعلوماتية والهندسة الوراثية والاتصالات والإعلام وغيرها، هي الأكثر استقطاباً لرؤوس الأموال والقوى العاملة، «حتى إنها تشكل مرحلة عالمية ثالثة، بعد مرحلتي الزراعة والصناعة. ويرتبط بالمعرفة، المستوى التعليمي والبحث العلمي والكفاءات العلمية المدربة وبراءات الاختراع، كمعايير لامتلاك قوة المعرفة واقتصادها».

وبناء على ذلك، فإن جوزيف ناي، يرى أنه لم يحدث منذ روما، أن امتلكت أمة من الأمم مثل هذه القدرة من القوة الاقتصادية، والثقافية، والعسكرية، كالتي تمتلكها الولايات المتحدة الأمريكية اليوم. لكن هذه القوة لا تتيح للولايات المتحدة أن تحل مشاكل عالمية كالإرهاب، والتدهور البيئي، وانتشار أسلحة الدمار الشامل، دون إشراك أمم أخرى.

بالتالي، ودائماً بحسب ناي، فالقوة الناعمة أفضل بكثير في هذه الحالة، لا سيما وقد

---

(٨) المصدر نفسه.

أثبتت التجربة نجاعتها ومدى تأثيرها: فـ «الجماهير السوفياتية كانت تشاهد الأفلام، وتتمثل خلفياتها السياسية، وعبرها استطاعت الجماهير ذاتها، أن تعرف أن الناس في الغرب لا يقفون في طوابير لاقتناء الطعام، ويقيمون في مساكن مستقلة، ولديهم سياراتهم الخاصة»[٩] وهكذا.

لا يقلل ناي على الرغم من ذلك، من مركزية وأهمية القوة الخشنة، فهو يعتبرها ما زالت «ضرورية وحتمية»، لا سيما إزاء «الدول القومية التي تسعى إلى الحفاظ على استقلاليتها، وكذا المنظمات والجماعات الإرهابية»، التي تتبنى سياسات «استخدام العنف».

وبقدر ما لا يقلل الأدميرال ناي منها (من القوة الخشنة أقصد)، فإنه لا يستحبها في المطلق، بل لا يفضل اللجوء إليها، إلا في حالات خاصة وفي نهاية المطاف... أي عندما لا تستطيع أدوات وشعارات القوة الناعمة، إتيان أكلها في الزمن المحدد.

هما إذن، في تصور المؤلف أساساً، أداتان لسياسة واحدة، تستنفر عناصر إحداها لمجرد فشل عناصر الأخرى، بل قل إن الأولى (القوة الخشنة) هي في خدمة الثانية، ما دامت هي عصاها في المحصلة النهائية، والثانية خادمة الأولى، إن هي استطاعت «لعب الدور»، دونما لجوء إلى العسكر. هما وجهان لعملة واحدة كما يقال، هما العصا والجزرة متكاملتين، متناسقتين (حتى وإن بديا متناقضتين عضوياً)، تأخذ إحداهما المبادرة، إن تعذر على الأخرى السبيل.

بالتالي، فالفصل بينهما إنما هو «فصل تعسفي» بامتياز، إذ كل استخدام للقوة الصلبة تضمن دوماً استخداماً لوسائل القوة الناعمة، كما إن كل استخدام للقوة الناعمة، استند إلى التهديد باستخدام القوة العسكرية الصلبة أيضاً، وهكذا.

ثانياً: العهد الأمبراطوري الجديد، وضرورات المزج بين السلط الناعمة والخشنة

١ ـ إن تزايد إخفاقات إدارة بوش الابن في العديد من الملفات الخارجية (وضمنها العراق وأفغانستان)، باعتمادها على القوة الخشنة أو الصلبة، التي تقوم على القوة العسكرية المباشرة؛ إنما دفع بالكثيرين إلى تأكيد أهمية القوة الناعمة، كإحدى أدوات تحقيق المصلحة القومية الأمريكية، إلى جانب القوة العسكرية عند الحاجة إليها.

وقد أكد معهد بروكينغز، منذ صيف العام ٢٠٠٨، «أن تغيراً ما، يجب أن يلحق بالسياسة الخارجية للولايات المتحدة على الصعيد العالمي، في مرحلة ما بعد الرئيس بوش، ينطوي على إنهاء عسكرة السياسة الخارجية الأمريكية، بتحويل الولايات المتحدة إلى شريك دولي، يمكن الاعتماد عليه، عبر عدة آليات، تندرج جميعها في فئة القوة الناعمة، وأهمها التركيز على جهود حفظ السلام عالمياً»[١٠].

---

(٩) وذلك على الرغم من القوة العسكرية الضخمة التي كان يتمتع بها الاتحاد السوفياتي في حينه.

(١٠) Kevin F.F. Quigley and Lex Rieffel, «Ten Times the Peace Corps: A Smart Investment in Soft Power,» Brookings Institution (September 2008).

إنه لمن الأهمية بمكان، يقول محررو الدراسة، أن يُمنح الرئيس الجديد (باراك أوباما) السلطات الكافية، لإعمال البعد الرمزي، بغرض إعادة الاعتبار إلى صورة أمريكا في العالم، ولتخفيف تكاليف القوة العسكرية التي أنهكتها الحروب والتدخلات هنا وهناك. وعددوا ثلاثة أهداف لذلك: اجتذاب قاطني الدول النامية إلى النموذج الأمريكي، ضمن استراتيجية كسب العقول والقلوب، من خلال مساعدة تلك الدول لتصبح قادرة على الارتقاء بأوضاعها الداخلية اقتصادياً واجتماعياً، ثم دفع تلك الدول إلى تبني مواقف مؤيدة للولايات المتحدة في المنظمات الدولية، انطلاقاً من النتائج الإيجابية للتواصل بين الطرفين، ثم تعزيز التوجهات العالمية للمواطنين الأمريكيين، عبر دفعهم إلى الانخراط في العمليات ذات البعد الإنساني، أو المقدم للأبعاد السلمية في العلاقات الدولية.

بعد إخفاقات القوة الخشنة في عهد بوش الابن، وُضعت القوة الناعمة في خدمتها؛ فباتت هذه الأخيرة أداة لتغطية انتفاء قيم الأخلاق الأمريكية.

هذا معناه، أنه يجب أن يستتبع ذلك تحول الولايات المتحدة من محاولة استقطاب الدول النامية إلى العمل معها كشريك دولي، لمواجهة التحديات العالمية المشتركة، التي لا تستطيع أية دولة التصدي لمواجهتها منفردة، لا سيما لو كانت من قبيل التغير المناخي، وانتشار مرض الإيدز، وتصاعد خطورة الدول الفاشلة على الأمن العالمي، دونما أن يخضع ذلك لعمليات تسييس المهام، لإعطاء القوة الناعمة سبل التكريس.

٢ ـ إنه مع تولي إدارة جديدة للحكم في الولايات المتحدة منذ كانون الثاني/يناير العام ٢٠٠٩، أضحت الأطروحة النظرية للأدميرال ناي، حول ظهور أنماط غير عسكرية للقوة في العلاقات الدولية، موضع اهتمام عدد كبير من المحللين في الولايات المتحدة الأمريكية، وخاصة من زاوية مدى إمكانية الإفادة منها، في تدعيم مكانة الولايات المتحدة على الصعيد العالمي. لقد بات الرأي سائداً بأن القوة الخشنة المعتمدة في حالة أفغانستان كما في حالة العراق، إنما كان من شأنها الإضرار بصورة أمريكا، وأن القوة الناعمة التي كانت تبرر لها الاختيار وتشرعن لها السلوك، بل تتواطأ في الإحجام عن تمرير ما قد يكون من شأنه إفشال خطط القوة الخشنة مستقبلاً، أو إثارة الرأي العام على تجاوزاتها، أو تجاوزات القائمين عليها تصميماً وتنفيذاً على الأرض، هذه القوة تماهت مع القوة الخشنة إلى درجة الاندغام، فأفرزت واقعاً عالمياً مناهضاً لسلوك الإمبراطورية واختياراتها[١١].

بالتالي، فالاعتقاد القائم، منذ وصول أوباما إلى السلطة، إنما العمل على مزج القوتين معاً، في زمن السلم كما في زمن الحرب، في إطار ما سماه جوزيف ناي بـ «القوة الذكية»، التي بنيت

(١١) يحيى اليحياوي، **أسلحة العدوان الشامل: تطرف القوة وعولمة الخوف** (الرباط: منشورات عكاظ، ٢٠٠٣).

على حقيقة أن الخلل كان كامناً في «سوء استخدام» السلطة الناعمة، وعدم القدرة على مزاوجتها بالسلطة الناعمة:

ـ ففي حين ذهبت القوة الخشنة إلى أقصى مداها في الهدم والتدمير والقتل والاغتصاب والمداهمة، لم تتوانَ القوة الناعمة (في أفغانستان كما في العراق وفلسطين) في تبرير السلوكات نفسها، واستحضار ظروف التخفيف لديها، حتى وإن تسنى لها تمرير مقاطع من ذات التجاوزات جملة أو بالتفصيل.

ـ وفي حين ذهبت القوة الخشنة إلى حد محاصرة الفلوجة في العراق مثلاً، وتدمير مساكن أهلها بصواريخ الطائرات والمدافع، أحالت القوة الناعمة إلى عملية التنكيل التي تعرض لها قتلى أمريكيون في مداخل المدينة، دونما قدرة قوة الاحتلال على انتشال أطرافهم أو تحديد «الجناة»... ولكأنها تبرر لأطروحة «البادي أظلم».

ـ وفي حين تمت مداهمة البيوت منتصف الليل، وتم إرعاب أهاليها من لدن القوة الخشنة، دفعت القوة الناعمة بأن ساكنيها «إرهابيون»، «خارجون عن القانون» أو «متسترون على عناصر مطلوبة»... وهكذا.

ـ وفي حين مارست القوة الخشنة بالعراق، شتى صنوف التعذيب والإهانة والإذلال على عراقيين شرفاء، في سجن أبو غريب كما في غيره لشهور طويلة، رأينا القوة الناعمة (شبكات التلفزة تحديداً) لا تولي ذلك كبير اهتمام، أو تتماطل في تمرير بعض منه، بعد طول مراوغة وابتزاز. وعندما تسنى لها تمرير بعض من الصور، فإنما ذلك لاعتبارات سبق صحفية خالصة، وحسابات إشهارية صرفة، أو على خلفية من الربح المباشر... دونما استحضار يذكر لأدنى الاعتبارات الإنسانية، التي كان من المفروض أن تحكم قرار تمرير الصور إياها.

٣ ـ إن صمت بعض أدوات القوة الناعمة (وشبكات التلفزيون الأمريكية بالتحديد) على السلوكات السادية لقوات الاحتلال في العراق وأفغانستان، إنما يترجم تواطؤها مع القوة الخشنة، وانصياعهما معاً في مسلسل من الإهانة والإذلال لأبناء شعب لا ذنب له، إلا ذنب مقاومة الاحتلال، ضمنته له المواثيق الدولية بعدما قدسته شتى النصوص السماوية المتداولة.

ومن ثمة، فإن الذي عُرض على بعض من قنوات القوة الناعمة، إنما هو من باب تحصيل حاصل... حاصل أن شعبي العراق وأفغانستان، أضحيا منذ بداية القرن، مكمن الإهانة والإذلال والاستباحة المادية والمعنوية من لدن قوة، ادعت تحريرهما وتخليصهما، وفتح أبواب المستقبل من بين ظهرانيهما، بل واعتبارهما النموذج المقبل لما سواه من دول المنطقة. بالتالي، فما تم تقديمه من صور التنكيل بأسرى عراقيين، إنما هو حقيقة الأمر صورة ذات النموذج مطبقة على الفرد قبل الجماعة، على الإنسان في حيوانيته قبل الآدمية...

إن ما بثته قنوات أمريكية قليلة من صور لأسرى عراقيين في أقصى درجات الإهانة والتعذيب، ثم لمواطنين أفغان عُزّل، لا يشي فقط بانتفاء قيم الأخلاق على الأمريكيين ساسة

وعسكراً، بل وأيضاً بالطبيعة الفاشية لشعب كانت مكوناته الأولى من البدء، مرتزقة وقطاع طرق وسراق أبقار، لا اعتبار لديهم لما هي الأخلاق، ولا لما هو الآخر.

لا يمكن أن ينتابنا بصيص شك في أن أمريكا القرن الحادي والعشرين إنما هي القوة الخشنة المشرعة بامتياز، وما القوة الناعمة بصلبها إلا أداة لذات القوة، يحركها أصحاب النفوذ خدمة لمصالحهم، ودوداً من لدنهم على استمرار دورة رأس المال، المرتكزة على قوة النار والحديد دون سواها.

قد تكون القوة الناعمة أكثر فتكاً من القوة الخشنة وأكثر فعالية، ومن واجب الرئيس أوباما الاستفادة منها لإعادة بناء ما دمرته قوة بوش الخشنة.

ومع وصول أوباما إلى السلطة بأمريكا، فإنه يراهن على هذا المزج الذكي بين القوتين الخشنة والناعمة وفق السياق والمستجدات، لكنه لا يستطيع إلا أن يوظفهما لخدمة مفاصل منظومة الأمبراطورية الثابتة: مفاصل السيادة الأمريكية على العالم في كل المجالات، مفاصل تحقيق المصلحة القومية الأمريكية بكل الوسائل، مفاصل النموذج الأمريكي باعتباره القدوة، مفاصل النظرة الأحادية والاستعلائة للعالم وللتاريخ، والمرتكزة على القومية والدين في صورتهما البدائية، ومفاصل تقسيم العالم إلى مجالات حيوية، ومفاصل تطبيق مبدأ الخيار صفر في العلاقات الدولية، حيث لا شيء قابل للمساومة.

خاتمة

الغزو والاحتلال والقتل والتدمير، كلها تجري بالقوة الخشنة أو الصلبة، الأمر هنا واضح وجلي. لكن القوة الصلبة وحدها لا تقتل ولا تدمر، إذ الغزو والاحتلال والقتل والتدمير يجري وبذات نتائجه، باستخدام القوة الناعمة.

صحيح أن القوة الصلبة، هي استخدام للقوة العسكرية والأمنية، في الفعل المباشر من دولة ضد دولة أخرى، أو من جيش ضد جيش آخر، وفي ذلك يقال «إن الحرب هي امتداد للسياسة بوسائل الإكراه والقتل والتدمير، وإن السياسة الخارجية هي امتداد للسياسة الداخلية». إلا أن القوة الناعمة، باعتبارها مجموع الوسائل السياسية والدبلوماسية والاقتصادية والقانونية والإعلامية، التي تستخدمها الدول بعضها ضد البعض، لفرض إرادة بعضها على البعض الآخر؛ هذه القوة إنما هي أيضاً أداة لتحقيق السياسة الخارجية، التي هي امتداد للسياسة الداخلية، وهكذا.

إن القوة الخشنة تقتل، لكن القوة الناعمة تقتل أيضاً، بل إنها تكون، في بعض الأحيان، أخطر وأفتك من القوة الصلبة، على صعيد القتل والنتائج السياسية والاقتصادية، وعلى صعيد عدم القدرة على مواجهتها، حيث مفاعيلها أشد وطأة وتأثيراً.

ففي حالة السودان مثلاً، لاحظنا كيف أن استخدام القوة الناعمة قد تحول تدريجياً إلى

تغاضٍ عن استخدام القوة الخشنة، لتمرير ما كانت الولايات المتحدة وأوروبا تريدان تمريره دونما اللجوء إلى الأخيرة، حتى وصل الأمر في النهاية، إلى إصدار مذكرة باعتقال الرئيس السوداني، وقد كانت القوة الناعمة من ذي قبل، قد نجحت في الضغط من أجل توقيع اتفاق مع المتمردين في الجنوب، برعاية من الدول التي استخدمت القوة الناعمة، أمريكا وبريطانيا خاصة، تم الإقرار من خلاله بحق الجنوب في الانفصال.

وفي موضوع الصراع العربي الإسرائيلي، لاحظنا استخدام القوة الصلبة بصفة مستمرة، منذ بداية الصراع، بصيغة القتل الممنهج والتدمير المباشر، والتهجير المستمر للسكان الأصليين، ناهيك عن الاغتيالات والرمي بالفلسطينيين في السجون بالجملة، لكن لاحظنا أيضاً استخداماً كثيفاً لأساليب القوة الناعمة، من مفاوضات وأساليب مراوغة دبلوماسية، وسياسات علاقات عامة، للتغطية على الخشن من السلوك.

وخلال الحرب على العراق، وعبر كل مراحل الأزمة والمحنة، جرى استخدام كل الضغوط السياسية والدبلوماسية والاقتصادية والمخابراتية، كما هي الحال في استخدام الأمم المتحدة، للتضييق والخنق والحصار على العراق، وجرى في الآن ذاته، استخدام سلاح الإغراءات والقروض والأموال مع دول أخرى، كرافعة من رافعات القوة الناعمة.

قد تحتاج أمريكا إلى «القوة الناعمة» كأمة، إلا أن السياسيين والعسكريين يحتاجون إلى مادة أكثر قوة، للدفاع عن المصالح القومية الكبرى، أو ما تم اعتماده على أساس كونه كذلك. وعلى هذا الأساس، فإن الجمهور غالباً ما يفضل «القوي المخطئ» على «المسالم المحق». والدليل، يقول هؤلاء، أن القوة الناعمة لم تنجح في ثني زعيم كوريا الشمالية عن مشروعه النووي، حتى وإن كان من محبي أفلام هوليود، ولم تثنِ حكومة طالبان عن مساندة تنظيم القاعدة، حتى وإن كانت ذات الحكومة تعلم أنه بجريرة أسامة بن لادن، سيتم طرد طالبان من السلطة.

إن أمريكا الرئيس أوباما بحاجة إلى إدراك أهمية كل من القوة الصارمة والقوة الناعمة، وبحاجة إلى التواصل مع الآخر عبر الحوار، أي بالمحصلة إلى استراتيجية «ذكية»، تهدف إلى الدمج بين القوتين، على الأقل من باب رد الاعتبار إلى علاقات دولية، قوض بوش الابن كل مبادئها وأسسها و«الأخلاق» التي انبنت عليها، منذ نهاية الحرب العالمية الثانية □